لحظات الاحتضار

إعداد
القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أخي الكريم: تذكر أن الآخرة مقبلة، وأن الدنيا مـــدبرة، وأن الموت حقيقة لا محيد لك عنها، وشراب لا بد لك أن تشربه، وباب لا أبالك أن تلجه. فهل أعددت للقبر عدته؟ وللسؤال جوابه؟ !!

فلا أحد يجهل حقيقة الموت، ولا أحـــد يجـــادل في وقوعـــه وحصوله، ولكن أين من يصدق علمه عمله؟ ومقالـــه فعالـــه؟ !! ولذلك قيل: ما رؤي شيء يقين أشبه بالشك من الموت!!

فالموت يأتي بجهازه على الصغير والكبير، والرفيع والوضـــيع، والغبي والذكي والأبله والداهية، والمعسر والموسر، والملك والمملوك.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ*وَيَبْقَى وَجْـــهُ رَبِّـــكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فالعاقل من يفكر في المآل، ويدع مـــا يكـــون مصيره إلى زوال، ويشغل النفس بالبر والتقوى وما فيه خير الآخرة والعقبة.

والهالك، من أتبع نفسه هواها، وضـــيع أيامـــه في شـــهوات وملذات، وولج أبواب المعاصي والسيئات، وباع خسيسًا بنفيس.

يـــا نفـــس ويحـــك! للمتـــاب فبـــادري

مـــن قبـــل أن تـــأتي الـــذنوب مســـطره

يـــا نفـــس جـــدي في التقـــى وتـــزودي
عمـــــلاً وكـــــوني للقـــــا مستشـــــعره
يا نفس كم قـــوم علـــى الـــدنيا احتـــووا
ظلمًـــــا ومـــــا لهـــــم إذا مـــــن آخـــــره
يا نفس تـــوبي اليـــوم مـــن قبـــل الـــردى
فعســـــى تكـــــوني في غـــــد مستبشـــــره

وتذكر أخي الكريم: أن الدنيا أيام معدودة، مستعارة مردودة، وأنك فيها في ابتلاء وأنها لك دار حظ وعمل، وأنه لا مفر لك من نهاية الأجل، وأن القبر فتنة وحساب فإما نعيم وإما عــذاب، وأن المرء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. ففريق في الجنة وفريق في السعير.

فهل أعددت للموت عدته؟ وهل فكرت يومًـا في وحشـة القبور؟ وهل تأملت في أهوال الحشر والنشور؟

أعـــد علـــى فكـــرك أســـلاف الأمـــم
وقـــف علـــى مـــا في القبـــور مـــن رمـــم
ونـــــادهم أيـــــن القـــــوي مـــــنكم
والقـــاهر أم أيـــن الضـــعيف المهتضـــم
تفاضـــلت أوصـــافهم فـــوق الثـــرى
ثم تســـــاوت تحتـــــه كـــــل قـــــدم

أولاً: لحظات المحتضرين

أخي الكريم: هل فكرت في يوم من الأيام كيـــف ســـتكون خاتمتك؟ هل خلوت بنفسك يومًا وسألتها: كيف قد تكونين يـــا نفسي ساعة الاحتضار؟ كيف سيكون حالك والنـــاس مجتمعـــون حولك يبكون، ويتأسفون ولا أحد منهم يجد لك حيلة أو شفاء؟

كيف سيكون جوابك إن لقنك الحاضرون «لا إلـــه إلا الله»؟ هل ستقولينها أم ينقبض اللسان؟ هل ستقبلينها أم ترديها فيختـــتم لك بالكفر؟

فلربما كانت تلك الأسئلة من دواعي يقظتك، ومن موجبـــات زوال غفلتك، وانقطاعك عن اللهو واللعب، وتناســـي لحظـــات الاحتضار العصيبة، وثواني الفراق الأليمة، حيث سكرات المـــوت وخروج الروح وانتهاء العمر والأجل.

أخي:

هـــب أنـــك قـــد ملكـــت الأرض طُـــرًا
ودان لـــــك الـــــبلاد فكـــــان مـــــاذا
ألـــيس غـــدًا مصـــيرك جـــوف قـــبر
ويحثـــــو التـــــرب هـــــذا ثم هـــــذا

فتفكر يا عبد الله، فإنما هي أيام ولحظات وساعات معدودات، ويأتي داعي الموت، فلا هروب ولا محيد. ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

مشـــــيناها خطـــــى كتبـــــت علينـــــا
ومـــــن كُتبـــــت عليـــــه خطـــــى مشـــــاها
وأرزاق لنـــــــــــا متفرقـــــــــــات
فمـــــــن لم تأتـــــــه منـــــــا أتاهـــــــا
ومـــــــن كتبـــــــت منيتـــــــه بـــــــأرض
فلـــــــيس يمـــــــوت في أرض ســـــــواها

من أحوال المحتضرين:

ولا بأس أخي الكريم، أن أذكر لك بعض لطائف المحتضــرين، ممن فتح عليهم لحظة الموت بالثبات واليقين وخــتم لهــم بصــالح الأعمال، جزاء ما قدموا في حياتهم من الطاعات والقربات.

فقد حكى القرطبي في كتابه التذكرة: عن شيخ شيخه أحمد بن محمد القرطبي أنه احتضر فقيل له: قل لا إله إلا الله، فكان يقــول: لا. فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعــن يساري. يقول أحدهما: مت يهوديًا فإنه خير الأديــان. والآخــر يقول: مت نصرانيًا فإنه خير الأديان. فكنت أقول لهم: لا. لا. أنى تقولان هذا!! فكان الجواب لهما (لا) لكم.

فالله، الله، إذا نزل بك الموت، فلا يكن لك هم إلا الثبات على الدين والاستغفار من الذنوب، والتوبة النصوح، لعلك تلقى ربــك طاهرا نقيًا. فإن عوارض الفتن عند الاحتضار لا تحصى، فربما وجد المرء تشوقًا إلى الدنيا، وانزعج لفراق الأحبة، أو ضعف عن تحمــل سكرات الموت وزفراته، أو فتنه شيطان مريد فمال الإنسان عــن

دينه نسأل الله الثبات وحسن الخاتمة.

وعن عبد الله بن الإمام أحمد، قال: حضرت وفاة أبي، فكـــان يغرف ثم يفيق ويقول: لا بعد. لا بعد. فعل هذا مرارًا، فقلت له: يا أبتّ أي شيء يبدو منك؟ قال: الشيطان قائم بحذائي عاض علـــى أنامله يقول: فتني يا أحمد. وأنا أقول: لا بعد حتى أموت.

فتذكر – أخي الكريم – عسر هذه اللحظات، وتـــذكر مـــا يحصل فيها من البلاء والفتن، فوالله إنها لأحرى بالتذكر والتأمـــل، والاستعداد والتشمير عن ساعد الجد بالانتهاء عما حرم الله، وفعل ما افترضه وأوجبه، والإكثار من الخيرات وما ينفع في الدار الآخرة. فإن ذلك من أعظم ما يسهل على المرء سكرة الموت، ويجعله ثابتًـــا موقنًا من دينه ساعة الاحتضار.

فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يحتضر ويقرأ: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَـــدِرٍ**﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

وهذا العلاء بن زياد لما حضرته الوفاة، بكى، فقيل لـــه: مـــا يبكيك؟ قال: كنت والله أحب أن استقبل الموت بتوبـــة. قـــالوا: فافعل رحمك الله فدعا بطهور فتطهر، ثم دعا بثوب له جديد فلبسه، ثم استقبل القبلة، فأومأ برأسه مرتين أو نحو ذلـــك، ثم اضـــطجع ومات[(١)]. ولما احتضر عامر بن عبد الله بكى، وقال: لمثـــل هـــذا المصرع فليعمل العاملون، اللـــهم إني أســـتغفرك مـــن تقصـــيري

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص(٥٨٦).

وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله ثم لم يـــزل يرددها حتى مات.

ومن لطيف قدرة الله، أنه سبحانه وتعالى يثبت المؤمنين بالقول الثابت لحظة الاحتضار وما ذلـــك إلا ثمـــرة صـــبرهم وتقـــواهم وملازمتهم للطاعات وبعدهم عن الخطايا والمعاصي والسيئات.

وهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله، عند موته يقول: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحد النظر. فقالوا له: إنك لتنظر نظرًا شديدًا يا أمير المؤمنين. قال: إني أرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله وسمعوا تاليًا يتلو: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَـــا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُـــتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

أخي:

فكن بالله ذا ثقـــة وحـــاذر هجوم الموت من قبل أن تراه
وبادر بالمتاب وأنت حـــي لعلك أن تنال بـــه رضـــاهُ

ثانيًا: كيف نستعد للموت؟

أخي المسلم: أما وقد عرفت أن لحظـــة الاحتضـــار، لحظـــة امتحان، وأن الموت حتم لازم، ليس منه بد ولا منه مفـــر، فكـــن لتلك اللحظات على استعداد، وتزود بالتقوى ليوم المعاد، واعلـــم أنك تموت على ما حييت عليه، وأنك تبعث على ما مت عليـــه.

فكيف نستعد للموت؟ !

١ – اجتناب المنهيات:

فاجتنب أخي الكريم ما نهاك الله عنه، وجاهد نفسك بالابتعاد عن الشهوات والشبهات واعلم أن الله جل وعلا يغار على محارمه. فعن أبي هريرة ﷺ. أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المرءُ ما حرم الله عليه**»[1]. وقد أوعد الله جل وعلا من تعدى حدوده وانتهك حرماته بالفتنة والعذاب. فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

واعلم حفظك الله، أن جملة ما نهى الله جل وعلا عنه يتلخص في ثلاثة أمور:

الأول: الشرك. الثاني: الظلم. الثالث: الفواحش.

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

فعامة ما نهى الله جل وعلا ينضوي تحت هذه الثلاثة. فمن وفق لاجتنابها فقد استعد للموت حق الاستعداد، وكان اجتنابه نجاة له يوم المعاد.

فقد حرم الله جل وعلا عنه الشرك وجعله موجبًا للخلود في

---

(١) رواه البخاري ٩/٢٨١ ومسلم (٢٧٦١).

النار فقال: «**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**».

وحرم الظلم فقال: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**﴾ [الحج: ٧١].

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» [رواه مسلم، ٢٥٧٨].

وحرم الله جل وعلا الفواحش فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ**﴾[الشورى: ٣٧]. فهذه الثلاثة أصول المنهيات كلها، فمن حقق اجتنابها فقد اجتنب عامة ما نهى الله عنه. من الغيبة والنميمة والكذب وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والغش والخداع والمكر والغدر والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك مما يعد انتهاكًا لحرمات الله وحدوده.

نادي القصور التي أقوت معالمها
أين الجسوم التي طابت مطاعمها
أين الملوك وأبناء الملوك ومن
ألهاه ناضر دنياه وناعمها
أين الأسود التي كانت تحاذرها
أسد العرين ومن خوف تسالمها
أين الذين لهوا عما له خلقوا
كما لهات في مراعيها سوائمها

أين العيـــون الـــتي نامـــت فمـــا انتبـــهت
واهًـــا لهـــا نومـــة مـــا هـــب نائمهـــا

٢- أداء الفرائض والواجبات:

ولا تنجلى حقيقة إسلام العبد إلا بأداء ما افترضه الله عليـــه، ومن ذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج لمن استطاع إليه ســـبيلا، فهذه هي ثوابت الإسلام وأركانه. فعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: سمعـــت رســـول الله ﷺ يقول: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـــه إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيـــت، وصوم رمضان**»[1].

فمن حافظ على هذه الفرائض وأداها على الوجه الذي يليـــق كما بين رسول الله ﷺ فقد جمع خصال الخير والفضل، وكان لـــه ذلك أكبر عون على سكرات الموت ووحشة القبر وأثابه الله علـــى ذلك أجرًا عظيمًا.

فعن أبي هريرة ﷺ: أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته، دخلت الجنة، قال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا فلما ولى**»، قال النبي ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى رجل من أهـــل الجنـــة فلينظـــر إلى**

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

هذا»(١).

نسأل الله أن يوفقنا للاستعداد ليوم الحاجة والمعاد، باجتناب ما حرم وفعل ما أمر ولا يجعلنا في النادمين ولا من الـــذين يطلبـــون الرجعة، ويسهل علينا شدة القبر وعلى جميع المسلمين.

إذا المـــرء لم يلـــبس ثيابًـــا مـــن التقـــى
تقلـــب عريانًـــا وإن كـــان كاســـيا
وخـــير خصـــال المـــرء طاعـــة ربـــه
ولا خـــير فـــيمن كـــان لله عاصـــيا

٣- تذكر الموت ومحاسبة النفس:

أخي الكريم: ومما يعلي الهمة، ويدفع الـــنفس إلى الاســـتعداد للموت، دوام ذكره ومذاكرته، وتوقع حصوله في كل لحظة وحين، ومحاسبة النفس على الأقوال والأفعال والخواطر.

قال سفيان: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من ريـــاض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار.

وقال حاتم الأصم: من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه و لم يـــدع لهم فقد خان نفسه وخانهم. ولذلك فقد رغب رســـول الله ﷺ في زيارة القبور لما لها من أثر بليغ على النفوس. فعن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تـــذكركم**

(١) رواه البخاري ٢١٠/٣ ومسلم (١٤).

الآخرة»[١].

وروي عن داود الطائي أنه مر على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت الحيـــاة ولا نلتـــها إذا كنت في القبر قد لحدوكا
فكيف أذوق طعم الكـــرى وأنت بيمناك قد وســـدوكا

ثم قالت يا ابناه ليت شعري بأي خديك بدأ الدود؟ فصـــعق دواد مكانه وخر مغشيًا عليه.

فأكثر أخي الكريم، من ذكر هادم اللذات، واعلم أنـــه آت لا محالة، واستعد للحساب وامتحان القبر.

قال عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفســـكم قبـــل أن تحاســـبوا، وزنوها قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية[٢].

ولذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه كل وقت وحين علـــى أداء الفرائض، واجتناب النواهي وأين قضى يومه، ومن أين اكتســـب ماله، وفيم أنفقه، وماذا بطش بيده وأين سارت رجله، وماذا رأت عينه وماذا سمعت أذنه؟

فمتى كان العبد شديد المحاسبة لنفسه، مداومًا علـــى التوبـــة

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن.

والاستغفار مما يجده من التقصير والتفريط في جنب الله، كان أقرب إلى الثبات عند الموت، وأبعد عن الفتنة وشدة البلاء.

٣- الإكثار من الطاعات والقربات:

ومن ذلك الحرص على النوافل والأذكار، وأعمال الخير وبذل المعروف، والتخلق بالخلق الحسن مع الناس، فإنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من الخلق الحسن.

قال رسول الله ﷺ: «**كل معروف صدقة**»(١).

وقال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»(٢).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط قال: لما حضر أبا بكر الصديق الموتُ دعا عمر فقال له: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار ولا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فرضيته، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلاً»(٣).

فاغنم العمر وبادر بالتقى قبل الممات

(١) رواه البخاري ٣٨٤/١٠ ومسلم ٦٣٥.
(٢) رواه البخاري ٢٢٥/٣ ومسلم ١٠١٦.
(٣) انظر صفة الصفوة ١١٧/١.

وأنـــب وارجـــع وأقلِـــعْ مـــن عظـــيم الســـيئات
واطلـــب الغفـــران ممـــن ترتجـــي منـــه الهبـــات
ثم نـــادي في الـــدياجي يـــا مجيـــب الـــدعوات
اعـــف عنـــا يـــا رحيمـــا وأقلنـــــا العثـــــرات

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.